الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

أ.د/ عبد الغفار حامد هلال(*)

قال الله ـ تعالى :

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران : ٨٣ ، ٨٤)

هاتان الآيتان الكريمتان تشتملان على أمرين : ـ

الأول: دين الله واحد ـ على ما جاء به الرسل جميعا بالوحدانية- ، وسيدنا محمد ﷺ مكمل لمسيرة الرسل ، واستسلام الكون لله الواحد ، وماعدا ذلك باطل .

الثاني: موكب الرسل موكب واحد متتابع متكامل والأمة الإسلامية تؤمن بهذا الموكب ومضمونه هو رسالة الإسلام .

فالأمر الأول : عبر عنه ـ سبحانه ـ بقوله تعالى :

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

الدين واحد يقوم على التوحيد للخالق ـ جل وعلا ـ ولا يجوز الانحراف عنه إلى شجر أو حجر أو حيوان أو إنسان أو ملك ، فلا يجوز الألوهية أو العبادة لغير الله ـ تعالى ـ كما يفعل هؤلاء الذين يرتكبون هذا المنكر ، فهو منذ مطلع البشرية حتى مجيء خاتم النبيين ﷺ يُعلَن على الناس ، وكل الكون قائم على العبادة والانقياد لله -تعالى- وخاضع لأمره ونهيه ، ولا بد للإنسان أن ينسجم مع بقية الكائنات في هذا الكون العريض ، فإرادة غير دين الله ضلال يهلك صاحبه ، واستقامة كل ما في الكون مرتكز على أساس التمسك بشرع الله حتى يتخلص من الشرور والآثام ويصبح نقيا طاهرا آمنا من كل ما ينغص الحياة .

بدأت الآية الأولى بالاستفهام الإنكاري :

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾

ودين الله هو التوحيد ، وعبادة غيره باطلة

(*) أستاذ علم اللغة بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر.

استقلالًا أو اشتراكًا.

كان أهل الكتاب يريدون عبادة غير الله يجعلون له شريكا ويدَّعون أن هذا دين إبراهيم وأنهم أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم، فقال له أهل الكتاب من الفريقين: «ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك»، فنزلت الآية الكريمة فأنكر الحق سبحانه ما زعموا.

وهذه الجملة اختلف فيها اللغويون كما اختلفوا في نظائرها من حيث التركيب اللغوي.

فالفاء عاطفة، قال الجمهور: إنها مؤخرة من تقديم، فالمفترض أن تسبق الفاءُ همزةَ الاستفهام لكن الهمزة قدمت عليها؛ لأن الاستفهام له الصدارة.

وهذه الجملة معطوفة على الجملة الشرطية السابقة عليها وهي:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(آل عمران: ٨٢)

ويقدر بعض النحاة معطوفا عليه بعد الهمزة وقبل الفاء، فهو على تقدير أيتولون فغير دين الله يبغون أو أيتمسكون بباطلهم فغير الله يبغون؟.

وفي قوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾

(الرعد: ٣٣)

قال بعضهم: إن تقدير معطوف عليه قبل الفاء غير ممكن وعليه يلزم عطف الجملة كلها على الآيات السابقة.

ولكن القائلين بالرأي الثاني يقدرون معطوفا عليه مناسبا، مثل: أهم ضالون فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت لم يوحدوه؟

والهمزة للإنكار التوبيخي حينئذ، وقدّره بعضهم: ألا مدبر للموجودات فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت، أي أينتفي المدبر فلا أحد قائم على كل نفس؟ ويكون الاستفهام تقريريًا.

و(غير) مفعول للفعل يبغون أي: يبغون غير دين الله، وقدمه لأنه الذي يقع عليه الإنكار، أو للاختصاص أي: كيف ينكرون دين الله وهو الحق؟ أو بصورة خاصة لا يريدون دين الله.

قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب

﴿يَبْغُونَ﴾

بالياء، على أنه حديث عن هؤلاء الناعين إلى رسول الله ﷺ المؤمنين إنكارًا لما يدعون.

وقرأ الباقون بالتاء: (تبغون) على أن الحديث القرآني موجه إليهم خطابا لهم يقول لهم: كيف تريدون غير دين الله؟ تهديدا لهم وتعجيبا من حالهم.

والخطاب في الوجه يكون أكثر وعيدا وتهديدا وبيانا لخطل رأيهم الذي يترتب عليه العقاب.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

الإسلام هو الانقياد والخضوع؛ بالنسبة لما يعقل عبادة، وبالنسبة لما لا يعقل انقياد واستسلام هذا في الظاهر.

والعلماء يرون أن لكل مخلوق عبادة لا نفهمها

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

(الإسراء: ٤٤)

فالإنس والجن والملائكة من العقلاء والكائنات الأخرى كالحيوان والطير والجماد كل ذلك يستسلم لله بالعبادة والانقياد.

والطوع والكره هو أن المخلوق يستسلم

لما جعله الله فيه ولا يستطيع الخروج منه فهو تحت سيطرة خالقه وتصرفه ـ مثلا ـ الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض والغني والفقير كل هؤلاء وغيرهم مستسلمون للخالق طائعون متقبلون لما يحدث لهم، إنهم لا يستطيعون الفكاك منه.

والمؤمن طائع والكافر مسخر لإرادة خالقه مع ما له من اختيار يحاسب عليه.

وكل الكائنات مسخرة بالإرادة الإلهية هي خاضعة لأمره ونهيه -سبحانه وتعالى- ولا تملك أن تخرج عن مقدوره -عز وجل-.

وما دام أن الكائنات على الوحدانية فالعقلاء لا يجوز لهم الخروج عليها لقيام الدليل من انتظام الكون على وحدانيته -سبحانه وتعالى-.

وطوعا وكرها مصدران وقعا مكان المشتق حالين، أي: أسلم من في السماوات والأرض طائعين أو كارهين فليس لهم مخرج من قبضته.

وجملة:

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

كلها حال من الضمير الفاعل في

﴿يَبۡغُونَ﴾

كيف يبغي المخلوق الإنسان من أهل الكتاب وغيرهم دينا غير دين الله المجمع عليه من جميع خلقه؟

وهو أنه سبحانه الإله الواحد وما هم عليه من شرك أو بُعد عن الدين الحق لا يجوز ولا يليق إرادته أو الاتجاه إليه.

وذيل سبحانه الآية بقوله:

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾

وهي جملة حالية، أو مستأنفة للإخبار عن العودة إلى الله

﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾

(الأعراف: ٢٩)

والعودة يوم القيامة للحساب على ما قدم الإنسان من عقيدة وعمل فإذا كان الشأن هكذا، فكيف يتركون دين الله إلى غيره من الأديان الباطلة؟ ألا يخشون العقاب عليها؟ إن الأمر جد خطير.

فالجملة تهديد للزائغين، ودعوة إلى المسارعة إلى الرجوع إلى الدين الحق الذي جاء به الأنبياء جميعا وخاتمهم رسول الله سيدنا محمد ﷺ ويؤيده قراءة غير عاصم (تُرْجَعُونَ) بتاء الخطاب كأنه يقول لهم: «أيها الضالون، ستعودون إلى الله ويحاسبكم بالعقاب على ضلالكم».

أو الجملة حال من:

﴿مَن﴾

في قوله تعالى:

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

على أن الكائنات راجعة إلى الله من أهل السماوات وأهل الأرض ومنهم الجاحدون المنكرون للحق، والقادر على الإعادة قادر على حسابهم وعقاب الضالين منهم.

ويمكن في حال القراءة بالخطاب أن يكون المعنى عاما للناس جميعا فأنتم أيها الناس الذين جاء إليكم الرسل بالدين الحق عائدون إليه فيحاسب الطائع بالثواب والعاصي بالعقاب.

والثاني: موكب الرسل موكب واحد متتابع متكامل والأمة الإسلامية تؤمن بهذا الموكب ومضمونه هو رسالة الإسلام وعبر عنه بقوله -جل ثناؤه-:

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

﴿مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

طولبت الأمة الإسلامية أن تعلن الإيمان بعقيدة التوحيد ونبوة سيدنا محمد ﷺ وما نزل عليه وبلغ إليهم، وهو القرآن الكريم والإيمان بمسيرة الرسل الكرام وما نزل عليهم من كتب وشرائع كانت مناسبة لعصورهم، وقد جاء القرآن الكريم مصدقا لها في إعلان التوحيد ومنهج الله إلى البشر.

والأمة الإسلامية تؤمن بالرسل من أول آدم مرورا بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وسائر أنبياء الله والمؤمنون يؤمنون بجميعهم لا يفرقون بين رسول ورسول ولا بين بعضهم وبعض، وليسوا كأهل الكتاب الذين يفرقون بين رسل الله فيؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

إن الإذعان لله ـ تعالى ـ يقتضي التصديق بكل رسل الله وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ وما نزل عليه وهو القرآن الكريم، ولا يصح العناد والبغي والحسد فقد جعل الله ـ تعالى ـ النبوة في العرب كما جعلها في غيرهم من الأمم والشعوب.

والنبوة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده فلا يصح أن ينفسوا على سيدنا محمد ﷺ وما نزل عليه مما حباه الله من فضله.

الجمع مع الإيمان:

﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾

يجمع بين إيمان الرسول ﷺ وإيمان أمته مع المنزل عليه:

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

فنسب الإنزال إلى الأمة لأن الرسول ﷺ مكلف بتبليغها القرآن الذي نزل عليه من أجل هدايتها، أو نسب إلى الكل وهو للواحد ـ الرسول فحسب ـ مجازا.

ولماذا قال هنا:

﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

فعدى فعل الإنزال بـ (على) وقال في سورة البقرة:

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾

(البقرة: ١٣٦)

فعدى فعل الإنزال بـ (إلى)؟

الجواب أن ذلك تفنن في العبارة فمرة يستخدم: (على) ومرة يستخدم (إلى) لكن الراغب الأصفهاني يوجه ذلك بأنك إذا قصدت جهة العلو؛ لأنه واصل من الملأ الأعلى يستخدم حرف الجر (على) وإذا قصدت جهة الانتهاء بالإيصال إلى المنزل عليه يستخدم حرف الجر (إلى).

وأوضح ذلك بعض المفسرين بملاحظة جهة الابتداء وجهة الانتهاء فإذا لوحظ الابتداء في النزول فهو ما نزل من جهة العلو فيستخدم (على)، وإذا لوحظ انتهاء الوحي إلى المنزل عليه يستخدم الحرف (إلى).

وقيل: أنزل عليه بالتعدية بـ (على) على أساس النظر إلى أن الرسول المنزل عليه يبلغ به غيره.

وأنزل إليه بالنظر إلى أن الرسول ينتهي إليه أمر الإنزال من السماء بوصول المنزل إليه.

ولسائل أن يسأل ـ أيضا: لماذا اكتفى بذكر بعض الأنبياء؟ الجواب: ذكر عددا من الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بنبوتهم وكتبهم المنزلة عليهم:

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾

والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد، والقبيلة من اليهود[1]، وهم الأحفاد من غير أولاد البنات.

والمراد على بعض الآراء: أبناء يعقوب الاثنا عشر وذراريهم.

وخص (موسى وعيسى) -عليهما السلام- بالذكر؛ لأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدَّعون أنهم أتباع هذين النبيَّين، وموضوع الحديث هو معهم وعنهم إذ هم الذين يفرقون بين الرسل في الإيمان ببعضهم وما نزل عليهم دون بعض ويتعنتون مع سيدنا محمد ﷺ.

ومعنى:

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾

الإيمان بالكتابين اللذين نزل عليهما؛ التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى.

ثم أجمل النبيين، وهم كثير غير المذكورين يجب الإيمان بهم وبما نزل عليهم ممن ذكرهم القرآن الكريم في مواضع أخرى تفصيلا أو إجمالا.

وأعلنها صريحة:

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

هذا أساس الإيمان الصحيح تؤمن به الأمة الإسلامية، ويجب على أهل الكتاب أن يذعنوا لهذا الحكم بالإيمان بهم جميعا وخاتمهم ﷺ وبعدم تفضيل بعضهم على بعض دون خبر السماء.

ثم ذيل الآية الكريمة بقوله تعالى:

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

والإسلام - هنا - بالمعنى اللغوي وهو: الاستسلام للخالق والانقياد لأوامره ونواهيه دون المعارضة والإنكار مع إخلاص العبادة لله -تعالى- وحده، ثم هو إعلان عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعا، ويجب على أهل الكتاب الدخول فيه بالتسليم بالتوحيد للخالق والإيمان بسائر الأنبياء، وهو ما تؤكد عليه سورة آل عمران في الآيات المتتابعة في جدال أهل الكتاب والرد عليهم فهي مؤكدة للإيمان وموسعة للمعاني المرادة بصلاح الأعمال.

❊❊❊

(١) القاموس المحيط ٢/ ٣٧٦.